استعادة الماضي

قراءة في رائية الملك الضِّلِّيل

اعداد

د. مصطفى بيومي عبد السلام

أستاذ النقد الأدبي المساعد

كلية دار العلوم ، جامعة المنيا

المستخلص:

تطمح هذه القراءة إلى تشخيص فكرة استعادة الماضي في رائية امرئ القيس، وهي بهذا التوجه تعمد إلى نوع من التأويل يطلق عليه فلاسفة الهرمنيوطيقا "التأويل التشخيصي"، وهو نوع من التأويل يعالج النص بوصفه العرض لشيء ما ليس نصيًا، شيء ما أعمق افتراضًا يصبح المصدر الحقيقي / الفعلى للتفسير، أي إن ما نقوم به هو قراءة نص الرائية بوصفها عرضًا لفكرة استعادة الماضي. إن هذا النوع من التأويل يهمل الخصائص النوعية للموضوع المؤول، أي إن موضوع التأويل يصبح علامة أو علامات لشيء ما آخر. وربما يكون هذا النوع من التأويل فعلًا هرمنيوطيقيًا غير مرضٍ عند من يعتنون بالخصائص النوعية للنصوص، ولكنه قد يكون على قدر كبير من الأهمية إذا نظرنا إلى النصوص بوصفها ممارسات ثقافية دالة.

الكلمات المفتاحية:

امرؤ القيس، الشعر الجاهلى، التأويل التشخيصي، القصيدة الرائية، القراءة.

Abstract

This reading aspires to diagnose the idea of restoring the **past in Raiyat Al Malik Al Dilil, and in this approach deliberately to a kind of interpretation called the philosophers of hermeneutics: Sympotomatic Interpretation, a kind of interpretation that deals with the text as a presentation of something is not textual, something deeper assumption becomes the real source / Actual explanation, that is, what we do is read the text of Al Raiyat as a presentation of the idea of restoring the past. This type of interpretation neglects the qualitative characteristics of the subject matter, that is, the subject matter of interpretation becomes a sign or signs of something else. This type of interpretation may be unsatisfactory hermeneutical action to those who take care of the specific characteristics of the texts, but it may be of great importance if the texts are regarded as meaningful cultural practices.**

(١)

الملك الضِّلِّيل في رواية الأصمعي: "هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكِلِ المُرار بن معاوية بن ثور وهو كندة"[١]؛ والاختلاف في نسبه كثير[٢]، ولقد اكتفى "ابن قتيبة" بأنه: "امرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو الكندي"[٣]، لكنه أسقط الحارث جد امرئ القيس، وكان من أعظم ملوك كندة، وجرى ذكره كثيرًا في شعر حفيده، وكان الحارث عظيم القدر، "وولى بنيه على بكر وتميم وتغلب وأسد وعبس"[٤]. وتروي كتب الأخبار أن اسم امرئ القيس حُنْدج، وعدي، ومُلَيْكَة[٥]؛ ويكنى امرؤ القيس أبا زيد، وأبا وهب، وأبا الحارث أو أبا الحرث[٦]. ولقب بذي القروح لمرض أصابه في نهاية حياته. وامرؤ القيس لقب له لُقب به، ويفسر بأن: "القيس الذي

حرصًا على الاختصار، لم أذكر في الهامش إلا اسم المؤلف متبوعًا بتاريخ صدور الكتاب، ورقم الصفحة، وإذا كان لمؤلف واحد كتابان صدرا فى تاريخ نشر مشترك، فإننا نعطى الأول منهما رقم (١) والثانى رقم (٢) تأتى بعد تاريخ النشر؛ أما عنوان الكتاب ومكان صدوره سيجده القارئ مفصلًا في الببليوجرافيا الخاصة بالمصادر والمراجع المثبتة في نهاية الدراسة.

[١] الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)، المجلد التاسع، ص ٥٩.

[٢] راجع على سبيل المثال:
- الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)، السفر الأول، ص ٥١.
- الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (١٩٩١)، ص ٩.
- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (١٩٩٣)، ص ٣-٤.

[٣] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، ص ١٠٥.

[٤] ابن سعيد، علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي (١٩٨٢)، الجزء الأول، ص ٢٤٥.

[٥] راجع:
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (١٩٦٦)، ص ٢١.
- بركلمان، كارل (١٩٨٣)، ص ٩٧.

[٦] راجع:
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، الجزء الأول، ص ٣٣٠.
- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (بدون تاريخ)، الجزء الثاني، ص ٤٢٤.
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد (١٩٩١). ص ٣١١.

يضاف إليه صنم كان يعبد في الجاهلية، وتعدل الكلمة في اللغة الشمالية عبد القيس، وسُمِّي به كثيرون"[١]؛ ويضيف "العباسي" في "معاهد التنصيص" إلى ذلك أن: "معنى امْرِئ الْقَيْس رجل الشدَّة، والقيس فِي اللُّغَة الشدَّة، وَقيل الْقَيْس اسْم صنم، وَلِهَذَا كَانَ الْأَصْمَعِي يكره أَن يروي قَوْله يَا امْرأ الْقَيْس فَانْزِل وَيَرْوِيه يَا امْرأ الله فَانْزِل"[٢]؛ وفسره "الطُّوفي" بأن معناه: "إنسان الرأي؛ لأن رأيه ومعرفته بالأمور كان جيدًا، وقد دلَّ على ذلك جودة شعره، وإبداعه فيه، ولأنه كان ملكًا، ولا يستنكر له جودة الرأي والمعرفة"[٣]؛ أما "البغدادي" فيرى أنه: "لقب له لُقب به لجماله، وذلك لأن الناس "قِيسوا" إليه في زمانه فكان أفضلهم"[٤].

ولقب أيضًا بالمَلِكِ الضِّلِّيل، كما أشرت سلفًا، والضِّلِّيل في المعجمية العربية القديمة هو رَجُلٌ كَثِيرُ الضَّلال. ومُضَلَّلٌ: لَا يُوَفَّق لِخَيْرٍ أَي ضالٌّ جِدًّا، وَقِيلَ: صَاحِبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ، وَهُوَ الْكَثِيرُ التتبُّع للضَّلال. والضِّلِّيلُ: الَّذِي لَا يُقْلِع عَنْ الضَّلالة، وَكَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يُسَمَّى المَلِكَ الضِّلِّيل والمُضلَّل. وَفِي حَدِيثِ عليٍّ وَقَدْ سُئل عَنْ أَشعر الشُّعَرَاءِ فَقَالَ: إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فالملِك الضِّلِّيل، يَعْنِي إِمْرَأَ الْقَيْسِ، كَانَ يُلَقَّب بِهِ. وقيلَ أَشْعَرُ الشُّعَرَاءِ ثَلاثَةٌ، المَلِكُ الضِّلِّيلُ، والشيخُ أَبُو عَقِيل، والغُلاَمُ القَتِيل. الشَّيْخ أَبُو عَقِيل لَبِيدُ بنُ رَبِيعَةَ، والْغُلامُ القَتِيلُ طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ. ويُقالُ: هُوَ ضُلٌّ بْنُ ضُلٍّ: أَي مُنْهمِكٌ فِي الضَّلالِ، والضِّلِّيل، بِوَزْنِ القِنْدِيل: المُبالِغ فِي الضَّلال والكثيرُ التَّتَبُّع لَهُ[٥].

---

[١] مكي، الطاهر أحمد (١٩٩٣)، ص ٥٢.

[٢] العباسي، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد (١٩٤٧)، ص ١٠.

[٣] الطُّوفي، نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد (١٩٩٤)، ص ١١٩.

[٤] البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، الجزء الأول، ص ٣٣٠.

[٥] راجع مادة ضلل في المعاجم الآتية:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥)، المجلد الحادي عشر، ص ٣٩٤.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (١٩٩٧)، الجزء التاسع والعشرون، ص ٣٤٩.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (١٩٨٧)، الجزء الأول، ص ١٤٧.

وقد لقب بهذا اللقب لأن "ملك كندة ضل على يده لما تنقل في أحياء العرب طالبًا ثأر أبيه، ثم ارتحل إلى قيصر يستنجده، فمات بأرضه وبطل ملكهم"[1].

وتروي كتب الأخبار قصصًا كثيرة عن حياته، تبدأ بخروجه على أبيه وطرده، بل وصل الأمر إلى أن الملك الأب قد أمر بقتله عندما فشل في إصلاحه، لأن الملك الأب كان يأنف من قوله الشعر، أو لأنه شبب بامرأة كانت زوجة أو جارية للملك الأب، ومرورًا بغواياته وضلالاته مع الصعاليك والشذاذ والخلعاء من العرب، ومقتل أبيه حُجر، وقوله: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا، اليوم خمر وغدًا أمر، فصارت مثلًا تتداوله ألسنة الناس، والسعي وراء الثأر من قتلة أبيه، وغاراته المتعددة على بني أسد، واستنجاده بقبائل العرب من أجل مساعدته في الثأر ونصرته في استرداد ملكه المفقود، ونعيه على نفسه وتعهره في شعره، وأخيرًا رحلته إلى قيصر لمعاونته على أعدائه من أجل عودته مملكًا عليهم، وصداقته بالقيصر ومنادمته له، وعلاقته بابنته التي نظرت إليه فعشقته ووقعت في حبه فكان يأتيها وتأتيه، وإصابته أثناء عودته من هذه الرحلة بمرض أودى بحياته، أو موته بحلة مسمومة أرسلها له قيصر الروم، بعد خروجه من عنده، بوشاية دسها له رجل من بني أسد، ثم قُبر بأنقرة إلى جوار قبر امرأة من أبناء الملوك على سفح جبل يقال له عسيب[2].

امرؤ القيس أو الملك الضِّلِّيل هو رأس الشعراء في الجاهلية، كما يقول الأصمعي، بل "أولهم كلهم في الجودة .. له الحظوة والسبق وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه"؛

---

[1] ابن العديم، الصاحب كمل الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (١٩٨٨)، الجزء الرابع، ص ٢٠٠٦.
وراجع أيضًا: على، جواد (١٩٩٣)، الجزء التاسع، ص ٥٢٠.

[2] راجع :
– الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)، المجلد التاسع، ص ٥٩–٧٧.
– ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (١٩٩٥)، الجزء التاسع، ص ٢٢٢–٢٤٥.

لأنه: "أول من بكى الديار وسير الظعن"[1]. وضعه "ابن سلام الجمحي" على رأس الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية، واحتج بتقدمه على الشعراء لأنه: "قَالَ مَا لم يَقُولُوا، وَلكنه سبق الْعَرَب إِلَى أَشْيَاء ابتدعها، واستحسنتها الْعَرَب، واتبعته فِيهَا الشُّعَرَاء: استيقاف صَحبه، والتّبْكاء فى الديار، ورقة النسيب، وَقرب المأخذ، وَشبه النِّسَاء بالظباء وَالْبيض، وَشبه الْخَيل بالعقبان والعصي، وَقيد الأوابد، وأجاد فِي التَّشْبِيه، وَفصل بَين النسيب وَبَين الْمَعْنى"[2]. وكذلك بدأ "ابن قتيبة" تراجم شعرائه بامرئ القيس وردد رأي "ابن سلام" في تقدمه على الشعراء[3]. أما "أبو زيد القرشي"، في جمهرة أشعار العرب، فقد وضع امرأ القيس على رأس الطبقة الأولى: "وهي السموط، وهي سبع من تسع وأربعين قصيدة، أولها لامرئ القيس"[4].

وجعل "الآمدي" لطيف المعاني ودقيقها، والإبداع والإغراب فيها، والاستنباط لها، أساسًا لتقديم العلماء لشعر امرئ القيس: "وبهذه الخلة دون ما سواها فُضِّلَ امرؤ القيس؛ لأن الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع أو أنواع، ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه؛ إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا: هو أول من شبه الخيل بالعصي، وذكر الوحش والطير، وأول من قال "قيد الأوابد" وأول من قال كذا، فهل هذا التقديم له إلا لأجل معانيه؟"[5].

---

[1] الأصمعي، عبد الملك بن قُرَيْب (١٩٨٠)، ص ٩، وص ١٨.

[2] الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)، السفر الأول، ص ٥٥.

[3] راجع: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، ص ١١٠.

[4] القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (١٩٨١)، ص ١١٣.

[5] الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (١٩٩٢)، الجزء الأول، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٢)

رائية الملك الضليل هي القصيدة الرابعة في ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وهي الرابعة في مخطوطة الأعلم الشنتمري، والخامسة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي عن ابن الأعرابي برواية المفضل)، والخامسة في مخطوطة السكري، ومخطوطة البطليوسي، والسادسة عشرة في مخطوطة ابن النحاس، والأربعون في مخطوطة أبي سهل[١]. والقصيدة تصور، كما تطرح كتب الأخبار والشراح، رحلة امري القيس إلى قيصر الروم[٢]؛ لكن القصيدة كانت موضع شك في رأي "طه حسين"، فهي قصيدة منتحلة: "منتحلة هذه القصيدة الرائية الطويلة"؛ لأنها تتصل بخبر رحلته إلى قيصر، وقد كانت أخبار امرئ القيس جملةً وتفصيلًا موضع شك، "فامرؤ القيس هو الملك الضليل حقًا. نريد أنه الملك الذي لا يعرف عنه شيء يمكن الاطمئنان إليه. هو ضُلٌّ بن قُل كما يقول عنه أصحاب المعاجم اللغوية"[٣]. أما "شوقي ضيف" فقد رد القصيدة أيضًا؛ لأنها تتصل بوصف رحلته إلى قيصر: "والقصيدة الرابعة (سما لك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفًا مسهبًا، ويكفي ذلك لردِّها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه"[٤].

[١] راجع تحقيق النص في: الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٣٩٠-٣٩٤.

[٢] راجع على سبيل المثال:
- شيخو، الأب لويس (١٩٩١)، ص ٤٥.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، ص ١١٨.
- الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى (١٩٦٣)، الجزء الأول، ص ٢٠، وص ٦١.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (١٩٠٧)، الجزء الأول، ص ٧٥.

[٣] حسين، طه (١٩٣٣)، ص ٢١١، وص ٢٠٩.

[٤] ضيف، شوقي (٢٠٠٠)، ص ٢٤٥.

لا يشغلنا في هذه الدراسة أن نتحقق من رحلة امرئ القيس إلى قيصر، ولا أن نقوم بتفسير الرائية بوصفها نصًا يصور رحلة الشاعر إلى قيصر، فهناك دراسات قامت بذلك[١]، لكن ما يشغلنا فعليًا هو قراءة الرائية على ضوء فكرة الملك المفقود ومحاولة استعادته، فالذي لا نرتاب فيه أن امرأ القيس كان مشغولًا بمحاولة الثأر لأبيه ومحاولة استرداد ملك أسرته الضائع، وكان يبحث دائمًا عن استعادة الماضي، وربما فكر في الذهاب إلى قيصر الروم لمعاونته على تنفيذ بغيته. تطمح هذه القراءة، إذن، إلى تشخيص فكرة استعادة الماضي في رائية امرئ القيس، وهي بهذا التوجه تعمد إلى نوع من التأويل يطلق عليه فلاسفة الهرمنيوطيقا "التأويل التشخيصي" Sympotomatic Interpretation، وهو نوع من التأويل يعالج النص بوصفه العرض لشيء ما ليس نصيًا، شيء ما أعمق افتراضًا يصبح المصدر الحقيقي / الفعلى للتفسير[٢]. أي إن ما نقوم به هو قراءة نص الرائية بوصفها عرضًا لفكرة استعادة الماضي. إن هذا النوع من التأويل يهمل الخصائص النوعية للموضوع المؤول، أي إن موضوع التأويل يصبح علامة أو علامات لشيء ما آخر. وربما يكون هذا النوع من التأويل فعلًا هرمنيوطيقيًا غير مرضٍ عند من يعتنون بالخصائص النوعية للنصوص، ولكنه قد يكون على قدر كبير من الأهمية إذا نظرنا إلى النصوص بوصفها ممارسات ثقافية دالة.

استعادة الماضي لا تعني فكرة اجترار الماضي والحنين إليه، ولا تعني استعادة الذكريات والمجد القديم، وإنما تعني تطوير الإمكانيات والاحتمالات المرتبطة بالماضي ومحاولة توظيفها في التطلع إلى المستقبل، أو في التطلع للحفاظ على ديمومة الملك واستمراره، بعبارة أخرى: إن استعادة الماضي تشير إلى محاولة استرداد

---

[١] راجع:

- خليف، يوسف (١٩٩٧)، ص ٦٨-٧٠.
- مكي، الطاهر أحمد (١٩٩٣)، ص ٩٤-٩٩.

[٢] حول التأويل التشخيصي راجع: كولر، جوناثان (٢٠١٦)، ص ١٠٣.

الملك. لم يكن امرؤ القيس مشغولًا بفكرة الثأر من قتلة أبيه فقط، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أن امرأ القيس أدرك بني أسد قتلة أبيه وأوقع بهم هزيمة قاسية وقتل منهم عددًا كبيرًا[١]، وإنما كان مشغولًا أيضًا بالمُلْكِ والمجد المُؤَثَّلِ، فالمسألة لم تتوقف عند فكرة الثأر فقط، فلو كان الأمر كذلك لعاش امرؤ القيس حياة هادئة ناعمة، واكتفى بما حقق من الانتصار على بني أسد، يقول امرؤ القيس[٢]:

فَلَــو أَنَّ مــا أَســعى لِأَدنــى مَعيشَــةٍ كَفــاني – وَلَــم أَطلُــب – قَليــلٌ مِــنَ المــالِ

وَلَكِنَّمــا أَســعى لِمَجــدٍ مُؤَثَّــلٍ وَقَــد يُــدرِكُ المَجــدَ المُؤَثَّــلَ أَمثــالي

وَمــا المَــرءُ مــا دامَــت حُشاشَــةُ نَفسِــهِ بِمُــدرِكِ أَطــرافِ الخُطــوبِ وَلا آلِ[٣]

إن امرأ القيس لا يسعى لأدنى معيشة، فلو سعى إلى ذلك لكان قليل من المال يكفيه، ولم يطلب المُلْكَ، أو المجد المُؤَثَّل، ولهذا كان محمومًا بفكرة الطلب المستمر، والرغبة التي لا تنتهى، وتتجلى فكرة: "كأن لم يكن" في شعره، وتلقي بظلالها الكثيفة، "إذا انقضى الشيء فكأن لم يكن. والأَوْلَى أن نقول: إذا تحققت الرغبة لم تتحقق. هذا هو مبدؤها الأصيل. الرغبة قرينها الخواء واللاشيئية والجوفاوية والبطلان، وهو سر القلق الذي يشيع في شعر الملك الضليل، هذا الشاعر الحزين أبدًا الذي لم يكن بالشاعر الناعم"[٤]. كان امرؤ القيس غريبًا من غير ملكه، ضل في القبائل وارتحل من أجل النصرة والمعاونة، أو كان، بعبارة "مصطفى ناصف"، "غريبًا عن العالم غريبًا عن نفسه"[٥]؛ وكان شعره مجلى للغربة وافتقاد الملك ومحاولة استعادته. لم تكن رائيته، فيما أتصور، تصويرًا لرحلته إلى قيصر الروم كما يزعم الرواة والشراح، وإنما كانت تصويرًا

[١] الشيخ، حسين (١٩٩٣)، ص ١٧١.
[٢] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٣٩.
[٣] حشاشة النفس: بقيتها وحياتها.
[٤] إبراهيم، السيد (٢٠٠٥)، ص ١٢٧.
[٥] ناصف، مصطفى (١٩٩٢)، ص ١٤.

لرحلته في الحياة ومحاولة استعادة الماضي والمُلك المفقود، وتصويرًا لغربته وضلاله وحيرته العميقة في الحياة. لقد وقف امرؤ القيس غريبًا على الحافة المسنونة للمحاولة: محاولة الملك أو استعادة الماضي.

(٣)

تنفتح رائية امرئ القيس بمقدمة طللية طويلة تشغل أربعة وعشرين بيتًا، أي ما يقارب نصف القصيدة التي تقع في أربعة وخمسين بيتًا في رواية الأصمعي. وتبدأ تلك المقدمة بفاتحة نصية تبرز التوتر الحاد والقائم بين الحاضر والماضي، وتكشف بطريقة عميقة عن استعادة الماضي من خلال الحاضر، لكن هذه الاستعادة لا تعبر عن الحنين إلى الماضي بقدر ما تهدف إلى توظيفه في سياق اللحظة الحاضرة، يقول امرؤ القيس[١]:

١- سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا وَحَلَّت سُلَيمَى بَطنَ قَوٍّ فَعَرْعَرا[٢]

٢- كِنانِيَّةٌ بانَتْ وَفي الصَدرِ وُدُّها مُجاوِرَةً غَسَّانَ وَالحَيَّ يَعمُرا[٣]

في الفاتحة النصية للمقدمة الطللية تفيض فجيعة الملك الضليل من مأساوية الفقد، حيث تتجسد أزمة الغياب في العالم الفعلى القائم، فالمحبوبة "سليمى" نائية بعيدة نزلت بطن قو وعرعر، لقد سما الشوق وارتفع وزاد غير أن الشوق الذي لازم الملك الضليل وسيطر عليه يخبرنا بأنه كان في عقله أمر ما، أمر عظيم (مفزع مقلق) يتصل باستعادة الماضي. لم يكن الشاعر الجاهلى، كما يتصور مصطفى ناصف، "يتحدث عن عاطفة شخصية، وإنما يفكر – بطريقته الخاصة – في مشكلات أساسية. كان

---

[١] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٥٦.

[٢] سما لك شوق: علا وتزيد أي ارتفع وذهب بك كل مذهب. أقصر: ترك وارعوى. وحلت: نزلت. وقو وعرعر: موضعان أو واديان. ويروي: سما بك.

[٣] كنانية: أي من بني كنانة. بانت: ذهبت وانقطعت. وفي الصدر ودها: وحبها لا يزال يملأ الصدر ويشغل البال. غسان: اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الغوث وبنو جفنة وخزاعة فسموا به، وإليه ينسب الغساسنة ملوك الشام. ويعمر: قبيلة من بني كنانة.

يحاور نفسه في معنى الحياة ويلتمس لها العون"[١]. يجب علينا أن نوجه عنايتنا قليلًا إلى فكرة: أقصر عن الشيء؛ أي أنه تركه عن قدرة أو عن عجز، وربما كان الشارح القديم محقًا عندما ذكر أن أقصر عن الشيء بمعنى "تركه وهو يقدر عليه، وقصر عنه عجز، وربما جاءا بمعنى واحد"[٢]. لقد كان التفكير في الماضي ومحاولة استعادته هو ما يقلق الملك الضليل ، فهو لا يستطيع نسيانه سالمًا، وإنما يستطيع المحاولة تلو الأخرى لاستعادته، ولهذا تجلت سليمى بوصفها علامة من علامات الماضي في مضيه، وصحوة الشوق وازدياده التي أشار إليها في البيت الأول تشير إلى عملية التفكير في كيفية استعادتها (سليمى)، وفي كيفية التغلب على إدراك ما فات وانقضى وغاب وكف عن الوجود الفعلي. لكن محاولة الاستعادة قد تبوء بالفشل فسليمى الكنانية، التي انقطعت وبانت وفي الصدر ودها، ذهبت مجاورة غسان (من اليمن) مرة، ويعمر (من بني كنانة) مرة، وهي بذلك أشد وأبعد لاجتماعه بها.

لكن هل يخفق الملك الضليل في عملية الاستعادة؟ إن سليمى بعيدة المنال، هي الماضي في مضيه وانفلاته بتمامه وكليته، الذي يقف حائلًا أمام استعادة الملك القديم ومحاولة استرداده، والملك الضليل يسعى ويجاهد من أجل المجد المؤثل. ولذلك ينبثق من الفاتحة النصية في المقدمة الطللية فكرة الظعن، وكأن المقدمة الطللية في مجملها "منبت ثقافة، منبت الوعي وإدراك الماضي في مضيه واستمراره معا، منبت إدراك قوة الخلق التي يمكن أن يتمتع بها الطلل"[٣]. مع حركة الظعن يولد الماضي ليس في مضيه فقط، ولكن أيضًا في قوة استمراره، وكأن الملك الضليل يتغلب على الفقد بالظعن، إنها إمكانات الماضي التي تتوخى المستقبل أو الحياة الجديدة؛ فالطلل هو

[١] ناصف، مصطفى (١٩٨١-١)، ص ٢٣٦.

[٢] الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى (١٩٦٣)، الجزء الأول، ص ٦١.

[٣] ناصف، مصطفى (١٩٨١-٢)، ص ٦٤.

النبع الثري الذي ولد الظعائن، والظعائن هي النبع الثري الذي يعلن عن ديمومة الحياة والقدرة على إعادة خلقها من جديد، يقول امرؤ القيس[1]:

٣- بِعَيْنَـــيَّ ظَعْـــنُ الحَـــيِّ لمَّـــا تَحَمَّلُـــوا لَـــدَى جانـــبِ الأَفْـــلَاجِ مِـــنْ جنـــبِ تَيْمَـــرَا[2]

٤- فَشَـــبَّهْتُهُمْ فـــي الآلِ لَمَّـــا تَكَمَّشُـــوا حـــــدائقَ دَوْمٍ أو سَـــــفينًا مُقَيَّـــــرَا[3]

٥- أوِ المُكْرَاعـــاتِ مـــن نَخِيـــلِ ابـــنِ يـــامِنٍ دُوَيْـــنَ الصَّـــفا اللَّائِـــي يَلِـــينَ المُشَـــقَّرَا[4]

٦- سَـــوامِقَ جَبَّـــارٍ أثِيـــثٍ فُروعُـــهُ وعـــالَيْنَ قِنْوانًـــا مـــن البُسْـــرِ أَحْمَـــرَا[5]

٧- حَمَتْـــهُ بَنُـــوا الرَّبْـــداءِ مـــن آلِ يـــامِنٍ بأَسْـــــيَافِهِمْ حتَّـــــى أُقِـــــرَّ وأُوقِـــــرَا[6]

٨- وأَرْضَـــى بنـــي الرَّبْـــدَاءِ واعْـــتَمَّ زَهْـــوُهُ وأكمامُـــــهُ حتـــــى إذا مـــــا تَهَصَّـــــرَا[7]

٩- أطَافَـــتْ بـــهِ جَـــيْلانُ عِنْـــدَ قِطَاعِـــهِ تَـــرَدَّدُ فيـــهِ العَـــيْنُ حَتَّـــى تَحَيَّـــرَا[8]

---

[1] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٥٦-٦٠.

[2] بعيني: اتبعتهم بنظري أو بمرأى مني. الظعن: الهوادج تحمل النساء. الأفلاج: الأنهار الصغار، واحدها فَلْج. والأفلاج وتيمر: موضعان.

[3] الآل: السراب يُرى في أول النهار عند ارتفاع الضحى كأنه الماء. تكمشوا: أخذو في سيرهم وجدوا فيه. وحدائق الدوم: حدائق شجر المقل. والسفين المقير: هو المطلي بالقار، يعني الزفت. ويروى: عصائب دوم.

[4] المكرعات من النخل: أي النخل النابت على الماء أو المغروسات في الماء. ابن يامن: اسم رجل كانت له نخيل وسفن بهجر. والصفا والمشقر: قصران بناحية اليمامة أو حصنان.

[5] سوامق: عاليات. الجبار من النخل: الفتِّي وهو الذي فات الأيدي فلم تنله. الأثيث: الغزير أو الملتف بعضه على بعض. عالين: رفعن. قنوان: عذق. البسر: أحمر من التمر.

[6] حمته: منعتهن يعني هذا النخل الجبار. بنو الربداء: قوم كانوا في شق البحرين لهم بصر بالنخيل ومعرفة بغرسه واستغلاله. أقر: استقر. أوقر: حمل ثمرًا كثيرًا جيدًا.

[7] اعتم: كمل وتم. والزهو هنا: البسر الأحمر والأصفر. الأكمام: أقماع البسر. وأصل الأكمام أغلفة الطلع عند خروجه من قلب النخلة. تهصرا: تثنى وتدلى.

[8] أطافت به: اكتنفته وأحاطت به. جيلان: قوم من الديلم كان كسرى يرسلهم عمالًا له على البحرين، ليتعهدوا نخله ويصرموه. عند قطاعه: وقت انصرامه. تردد فيه العين: تكر عليه العين مرة بعد مرة، وهي عين ماء البحرين.

١٠- كَـأَنَّ دُمَـى سَـقْفٍ علـى ظَهْـرِ مَرْمَـرٍ كَسَـا مُزْبِـدَ السَّـاجُومِ وَشْـيًا مُصَـوَّرا[١]

١١- غَرَائِـرُ فـي كِـنٍّ وَصَـوْنٍ وَنِعْمَـة يُحَلَّـيْنَ ياقوتًـا وشَـذْرًا مُفَقَّـرا[٢]

١٢- ورِيـحَ سَـنًا فـي حُقَّـةٍ حِمْيَرِيَّـةٍ تُخَـصُّ بمَفْـرُوكٍ مِـنَ المِسْـكِ أَذْفَـرَا[٣]

١٣- وبانًـا وأُلْوِيًـا مـن الهنـد ذَاكِيًـا وَرَنْـدًا وَلُبْنَـى وَالكِبَـاءَ المُقَتَّـرَا[٤]

تبدى الماضي في استمراره من الجملة الشعرية الأولى لمشهد الظعن: "بِعَيْنَيَّ ظَعْنُ الحَيِّ"، والجملة توحي بأن مشهد الظعن لا يزال بعينيه ولم يفارقه على الرغم من أن المشهد وقع في الماضي، أي إنها تشير إلى عملية الاستعادة، وتشير أيضًا إلى متابعة دقيقة لحركتها، مما يضفي على المشهد حيوية كبيرة، وكأنه تعويض عن عملية الفقد واستحالة الاستعادة التي برزت في المفتتح النصي. يبدأ مشهد الظعن بتحمل الظاعنين عن المرتبع الذي جمعهم، والوصول إلى موضع تحيط به الأنهار (الأفلاج). لقد تحركت الظعائن وبدت في الآل (السراب يُرى في أول النهار عند ارتفاع الضحى كأنه الماء[٥]) كأنها حدائق دوم (شجر المقل أو النبق) أو سفن محمية بالقار أو مطلية به، لقد تم تشبيه الظعائن "بحدائق الدوم لما في هوادجهم من الألوان

---

[١] الدمى: جمع دمية، وهي الصور من رخام أو خشب. سقف: جبل بديار طي أو هو دير بالشام، كانت به تماثيل قديمة. المرمر: ضرب من عالى الرخام. مزبد: علاه الزبد. الساجوم: وادي بجزيرة العرب. الوشي: الثياب المحلاة بالوشي وفيها صور طيور وغيرها.

[٢] الغرائر: الغوافل عن الدهر لصيانتهن وتنعمهن. والكن: ما يكتن به عن الحر والبرد. والشذر: قطع الذهب. المفقر: المصاغ على هيئة قِفار الجرادة، وهو مربع.

[٣] السنا: نبت يتداوى به، وهنا ضرب من الطيب. الحقة: علبة من خشب أو نحوه. حميرية: مما يصنع ملوك ملوك حمير باليمن. المفروك: المسك الجيد يفرك ويوضع في هذه الحقة. الأذفر: صفة للمسك وهو الشديد الرائحة، الطيب النكهة.

[٤] البان: شجر طيب دهن الثمر. الألوي: أجود العود وأطيبه. والرند شجر طيب الرائحة. واللبنى: ضرب من من الطيب. والكباء: كل ما يتبخر به. والمقتر: المدخن عند مباشرة النار له.

[٥] السندوبي، حسن (١٩٩٠)، ص ١٠١.

المختلفة، ثم شبههم لمسيرهم في السراب بالسفين"[1]. لم يقف التشبيه عند حد حدائق الدوم والسفن، وإنما تعداه إلى النخيل، مع ملاحظة أن الدوم من الفصيلة نفسها تقريبًا، فهو مرتفع في السماء مثل النخيل. ويستمر امرؤ القيس في تشبيه الظعائن بالنخيل المرويات أو المكرعات، أي النخيل المغروسات في الماء، وهذا أطيب لثمرها ونموها، فهي نخلات طوال عاليات ممتلئة سعفًا وثمرًا كثيرًا، واستدعى في تشبيهه آل يامن لأنهم أشهر الناس عناية بالنخيل ورعاية له. هذه النخلات ليست سامقات عاليات فقط، وإنما أينعت فتمايلت عروقها بالبسر أو التمر الأحمر أيضًا. وعلى الصعيد الآخر حقق النخل وجوده ورسوخه بالقوة والفعل من خلال سيوف بني الربداء التي حمته وحفظته حتى أُقِرَّ وأُوقِرَ ببسره (ثمره) الزاهي وحمله الكبير، الذي رضي به أصحابه، وقرت به أعينهم، وتحير فيه الناظر وتردد لفرط حسنه وكماله.

والغريب أن تشبيه الظعائن بالنخيل أثير عند امرئ القيس[2]، ولعل هذا يعود في أصله، كما يطرح عبد الله الطيب، إلى رمزية المرأة الكامنة في هذه النخلة، "مع الذي يتبادر إلى الذهن من أن هذا التشبيه من وحي البيئة وظاهر ما يبديه النظر لا غير، إذ جماعات الإبل تلوح من بعيد كأنها الشجر، وإن كانت عليها الهوادج كانت شديدة الشبه بالدوم والنخيل .... وفي هذا من دلالات الخصوبة ما فيه. وقول امرئ القيس في الرائية يوشك أن يكون نصًا على قوة الصلة بين الخصوبة والتشبيه الدائر في الشعر من جعل الظعائن كالنخل والدوم"[3].

---

[1] النفاخ، أحمد راتب (١٩٨٠)، ص ١٩.

[2] راجع على سبيل المثال مميته في: الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ١١٥، التي يقول فيها:

أو ما تَرَى أَظْعانَهُنَّ بَوَاكِرًا	**كالنَّخلِ من شَوْكانَ حينَ صِرَام**

[3] الطيب، عبد الله (١٩٧٠)، الجزء الثالث، ص ٨٨٣.

إن الخصوبة المتصلة بالنخلة والمرأة والظعن هي علامات الحياة في قوتها وعنفوانها، وفي ديمومتها واستمرارها، لقد ظل الملك الضليل يرقب ويترقب حركة الظعائن، من خلال عملية المتابعة الدقيقة، وهي تتحرك بين الدوم والنخيل تحفها الرعاية والحماية والقوة والنضرة والإثمار، حتى وصل إلى تصوير ظعائنه على الإبل، وما عليهن من الوشي والتصاوير المزخرفة الرائعة المنظر، وكأنه يعلن عن الحياة وهي تثمر ترفها ونعمتها على الظعائن: "كَسَا مُزْبِدَ السَّاجُومِ وَشْيًا مُصَوَّرا". لقد أوقف الملك الضليل قسوة الماضي في مضيه وانفلاته بالظعائن علامات الاستمرار والخصوبة والجمال، فالظعائن لا تبالي بالماضي في مضيه والزمن المنفلت أو قوة الدهر السلبية، فهن غرائر غافلات من النعمة عن القسوة والدهر. إن الظعائن تسعي إلى الماضي في استمراره وقوته وفاعليته، ويتعزز ذلك بالحماية والمنعة والقوة: "غَرَائِرُ في كِنٍّ وَصَوْنٍ وَنِعْمَةٍ". إنها محمية ومصونة ومعززة، وفي كن يحميها من قسوة الحر والبرد (تقلبات الزمان وأحواله)، وعليها الشذر أي قطع الذهب (الجمال والمال والنعمة). إن الحياة قد استطالت وتأطرت بالدوم والسفن والنخيل، ووصلت إلى حالة التنعم والترف، وينغلق مشهد الظعائن بهذا الترف ممثلًا في المسك والطيب والعود:

وريـــحَ سَـــنًا فـــي حُقَّـــةٍ حِمْيَرِيَّـــةٍ تُخَـــصُّ بمَفْـــرُوكٍ مِـــنَ المِسْـــكِ أذْفَـــرَا

وبانًـــا وأُلْوِيًـــا مـــن الهنـــد ذَاكِيًـــا وَرَنْـــدًا وَلُبْنَـــى وَالكِبَـــاءَ المُقَتَّـــرَا

(٤)

لكن سليمى التي بانت وانقطعت وفي القلب ودها، والتي هي علامة من علامات الفقد والماضي في مضيه، تعود مرة أخرى للظهور في نهاية المقدمة الطللية لرائية الملك الضليل. فهل هذا الظهور يشير إلى محاولة من محاولات الاستعادة؟ إن الملك الضليل يجتهد في عملية استبعاد الماضي بعناصره السلبية (الماضي في مضيه)

بقدر ما يتوخي استعادة العناصر الإيجابية (الماضي في استمراره) التي تحقق له المجد المؤثل أو الملك، يقول امرؤ القيس[1]:

١٤- غَلِقْنَ بِرَهْنٍ من حبيبٍ بـه ادَّعَتْ سُلَيْمَى فأمسَى حَبْلُها قد تَبَتَّرَا[2]

١٥- وَكانَ لهَا في سَالِفِ الدَّهرِ خُلَّةٌ يُسَارِقُ بالطَّرْفِ الخِبَاءَ المُسَتَّرَا[3]

١٦- إذا نَالَ مِنْها نَظْرَةً رِيعَ قَلْبُهُ كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبُوح المخمَّرَا[4]

١٧- نزِيفٌ إذا قامتْ لوَجْهٍ تمايلَتْ تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ أَلَّا تَخَتَّرَا[5]

١٨- أَأَسْماءُ أَمْسَى وُدُّها قد تَغَيَّرَا سَنُبدِلُ إنْ أَبْدَلْتِ بالوُدِّ آخَرَا[6]

١٩- تَذَكَّرْتُ أهْلي الصَّالحِينَ وَقد أتَتْ على خَمَلَى خُوصُ الرِّكابِ وأَوْجَرا[7]

٢٠- فَلَمَّا بَدَتْ حَوْرَانُ في الآلِ دُونَها نَظَرْتَ فلَم تَنْظُرْ بعيْنَيْك مَنْظرا[8]

٢١- تَقَطَّعَ أسْبَابُ اللُّبَانَةِ والهَوَى عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةً وَشَيْزَرَا[9]

٢٢- بسَيْرٍ يَضِجُّ العَوْدُ منه يَمُنُّهُ أخُو الجَهْدِ لا يُلْوِي عَلَى مَنْ تَعَذَّرَا[1]

---

[1] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٠-٦٢.

[2] غلقن برهن: حل موعده وتعذر فكاكه. حبلها: وصلها. تبتر: تقطع.

[3] الخلة: الصحبة بخليل يعني نفسه. يسارق: يخالس. الخباء المستر: المكان الذي تقيم فيه وعليه الستر.

[4] ريع قلبه: فزع وذعر وخفق بحبها. الصبوح: شرب الخمر بالغداة. المخمر: الذي رنه الخمر وأصابه بالخمار.

[5] النزيف: السكران الذي نزف السكر عقله. الوجه: ما يتوجه لها أن تفعله من الأمور. ومعنى تراشي: أي تعطيه الرشوة، أي تداريه وتخاتله. التختر: الفتور والكسل.

[6] سنبدل: سنتخذ بدلًا منك إن اتخذت بدلًا منا.

[7] خملى: جبل بارض بلقين بالشام. وقيل خملى وأوجر: موضعان. والخوص: جمع أخوص أو خوصاء من الإبل التي غارت عيونها من طول السفر.

[8] حوران: كورة واسعة في جنوب دمشق ذات قرى كثيرة ومزارع. الآل: السراب.

[9] حماة وشيزر: مدينتان شهيرتان من مدن الشام. اللبانة: الحاجة.

٢٣- ولَـم يُنْسِـنِي مـا قَـدْ لَقِيـتُ ظَعَائِنًـا وَخَمْـلًا لهـا كـالقَرِّ يومًـا مُخَـدَّرَا[٢]

٢٤- كأَثْـلٍ مـن الأَعْـرَاض مِـنْ دون بِيْشَـةٍ وَدُونِ الغُمَيْـرِ عامِـدَاتٍ لِغَضْـوَرَا[٣]

ينفتح المقطع الأخير من المقدمة الطللية بالمثل العربي: "غَلِقْنَ بِرَهْنٍ"، وأصله، كما يفسر "الأعلم الشنتمري"، "أن أهل الجاهلية كانوا إذا أخذ الرجل منهم رهنًا إلى أجل فحان الأجل قبل أن يؤدَّى استوجبه وفاز به"[٤]. لقد استخدمه الملك الضليل وضربه مثلًا لذهاب سليمى واستيلائها على قلبه، لقد أخذته من حبيب وادعته لها، لكن سليمى لم تحفظ الود والعهد وقطعت ما بينه وبينها من حبل الوصال: "فأمسَى حَبْلُها قد تَبَتَّرَا". عند هذه النقطة يراجع الملك الضليل علاقته بسليمى، ويسرد بضمير الغائب ما كان يضمره لها من محبة خالصة وخلة قديمة في سالف الدهر. ويجب ملاحظة تحول الخطاب من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب. لقد انقسم وعي الملك الضليل على نفسه وأصبح ذاتًا ناظرة وذاتًا منظورًا إليها، أي إنه وضع علاقته بسليمي موضع الفحص والنظر والتأمل، وفي تلك الحالة سيستخدم ضمير الغائب للإشارة إلي نفسه في سالف الدهر أو الماضي، أما هو الآن في اللحظة الحاضرة فلم يصبح كما كان.

لقد كان في سالف الدهر يختلس (يسارق) النظر إلى خبائها المستور، لأنها كريمة قومها فستروا خباءها بأخبيتهم، وكان إذا فجأها ونال منها نظرة ريع قلبه، أي فزع وخفق كما يفزع المخمَّر وهو ثمل حين ينظر إلى الخمر مع محبته لها وحرصه

---

[١] العود: الجمل المسن. يمنه: يضعفه. أخو الجهد: يريد نفسه وهو السائق المجد الشديد الدفع. لا يلوي: لا يلتفت ولا يميل. تعذر: امتنع.

[٢] الظعائن: النساء في الهوادج. الخمل: الظعينة. والقر: الهودج. المخدر: المقيم في الخدر.

[٣] الأثل شجر معروف. الأعراض: الأودية. وبيشة والغمير وغضور: مواضع فيها ماء يقام عليها.

[٤] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٠.

على التلذذ بالسكر منها، وهي تشبه السكران النشوان لتثنيها وضعفها عن المشي والتصرف، فإذا قامت لقضاء أمر ما استعملت التشدد وحملت نفسها عليه وتكلفته. لم يكن حال سليمي بعيدًا عن حال أسماء، فكل منهما استولى على قلب الملك الضليل وقطع الود والعهد، وتتم مراجعة العلاقة بهما، وينتهي الملك الضليل إلى استبعاد العناصر السالبة في عملية استعادة الماضي، فيقوم بعملية إبدال الود القديم بود آخر جديد: "سَنُبدِلُ إنْ أَبْدَلْتِ بالوُدِّ آخَرَا". لقد قرر الملك الضليل استبعاد كل عناصر الماضي في مضيه، واستعادة كل عناصر الماضي في استمراره، ومثلما استدعى الظعائن علامات الحياة والقوة والخصوبة والإثمار، فإنه يستدعي أهله الصالحين في رحلته من أجل استرداد الملك المفقود، واستعادة المجد المؤثل: "تَذَكَّرْتُ أهْلي الصَّالحِينَ".

في عملية استعادة الماضي (أو استرداد الملك) للملك الضليل يتم تذكر أهله الصالحين، وهم من الملوك الذين حكموا قبائل العرب، فالسعي وراء الملك يستدعي الملوك السابقين والصالحين من أهله. يجب أن نفكر في دلالة التذكر ليس بوصفه حالة ذهنية عائمة بعيدة عن الواقع الفعلي، ولكن بوصفه خبرة الحياة وتجاربها، فحينما "يتذكر المرء الأحداث المهمة يشعر أنه حي وأنه ميت، عقله نشيط يستطيع أن يعيد الماضي من جديد، ولكن حيوية الذهن تصطدم في الوقت نفسه بفكرة الماضي من حيث هو. وكلما مضي من تجارب المرء قدر عاد فوقف ليبكيه أو ليبكي ما ضاع من الحياة أو العمر"[1].

لقد انطلقت رحلة امرئ القيس في الحياة على وجه العموم لاستعادة الماضي أو لاسترداد الملك المفقود بعد استبعاد العناصر السالبة، وليس رحلة امرئ القيس إلى قيصر الروم، فكثير من الشراح يقف عند البيت العشرين والذي يليه وأبيات أخر من

[1] ناصف، مصطفى (١٩٨١-١)، ص ٢٣٧.

الرائية بوصفها دليلًا على تلك الرحلة لذكره حوران وحماة وشيزر وبعلبك، لكن يبدو أن امرأ القيس كان يعيش متنقلًا بين مدن الشام وأعمال دمشق، ومن ذلك ما يرويه "ابن عساكر"، في تاريخ مدينة دمشق، من أنه "كان بأعمال دمشق، وقد ذكر مواضع من أعمالها في شعره، فمن ذلك قوله:

قِفــا نَبــكِ مِــن ذِكــرَى حَبيــبٍ ومَنْــزِلِ بِسِــقْطِ اللِّــوَى بَــينَ الــدَّخُولِ فحَوْمَــلِ

فَتُوضِــحَ فَــالمِقْراة لــم يَعْــفُ رَســمُهَا لَمِــا نَسَــجتْها مــن جَنُــوبٍ وَشَــمْأَلِ

وكل هذه مواضع معروفة بحوران ونواحيها"[1]. وإذا أضفنا إلى ذلك أن البيتين من معلقته الشهيرة، وأن المعلقة قيلت قبل مقتل أبيه وكانت سببًا في طرده بل الدعوة إلى قتله، ومن ذلك ما يرويه ابن قتيبة: "وكان امرؤ القيس طرده أبوه لمّا صنع فى الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقًا، فطلبها زمانًا فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غرّة، حتّى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان، فقال: قِفا نَبكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ ومَنْزِلِ. فلمّا بلغ ذلك حُجرًا أباه دعا مولى له يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وأتني بعينيه"[2].

لقد بدأت رحلة البحث عن استعادة الماضي أو استرداد الملك قوية نشيطة لا تأبه بضعف، ولا بعناء السفر والمشقة، متعجلة تتحمل فوق طاقتها، لا تقف عند من أصابه عذر، ولا تهمل النساء في الهوادج.

(٥)

الناقة هي أداة الملك الضليل لمحاولة الملك أو استعادة الماضي، إنها ليست أداة من أدوات التسلية عن الهم، فالشاعر الجاهلي عمومًا والملك الضليل خصوصًا لا يرحل

[1] ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (١٩٩٥)، الجزء التاسع، ص ٢٢٢.
[2] ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، الجزء الأول، ص ١٠٧.

على ناقته من أجل الانعزال والاستسلام للحزن والبكاء على ما فات، وإنما يرحل من أجل صناعة الحياة بما تحتويه من أمل وتفاؤل وقوة وثبات؛ والحياة لا تعني إلا رحلة الناقة التامة الخلقة، "هذه الناقة التي تبدو جديرة بالتقدير والاحترام رمز للحياة. الناقة مهيبة، فالحياة في نظر الشاعر العربي ليست فكرة عرضية، إنها قوة كامنة واسعة مستوعبة"[١]. والملك الضليل يدرك ما توحي به الناقة من علامات القوة والحياة، يقول امرؤ القيس[٢]:

٢٥- فَدَعْ ذَا وَسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وَهَجَّرَا[٣]

٢٦- تُقَطِّعُ غِيطَانًا كَأَنَّ مُتُونَهَا إذا أَظهرتْ تُكسَى مُلَاءً مُنَشَّرَا[٤]

٢٧- بَعِيدَةُ بَينَ المَنْكِبَيْنِ كَأَنَّمَا تَرَى عند مَجْرَى الضَّفْرِ هِرًا مُشَجَّرَا[٥]

٢٨- تُطَايِرُ ظُرَّانَ الحَصَى بمناسِمٍ صِلابِ العُجَى مَلثومُها غيرُ أَمْعَرَا[٦]

٢٩- كَأَنَّ الحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا إذا نَجَلَتْهُ رِجْلُها خَذْفُ أَعْسَرَا[٧]

---

[١] ناصف، مصطفى (١٩٨١-١)، ص ٢٤٤-٢٤٥.

[٢] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٣-٦٥.

[٣] فدع ذا من أساليب العرب في الانتقال من غرض إلى غرض في القصيدة وقد يجئ ابتداء. الجسرة: الناقة النشيطة، وقيل التي تجسر على الليل والسير. والذمول: السريعة، أو التي تسير الذميل وهو سير سريع. صام النهار: قامت الظهيرة. وهجر: حميت الهاجرة واشتد حرها.

[٤] الغيطان: الأرض المطمئنة. متونها: ظهورها. وأظهرت: دخلت في وقت الظهيرة. الملاء المنشر: الثوب المبسوط.

[٥] بعيدة المنكبين: كناية عن سعة صدرها وتباعد ما بين عضديها. والمنكب: رأس الصدر. والضفر: حبل من حبال الهودج يشد به البطان. والهر: القط. والمشجر: المربوط.

[٦] الظران: جمع ظرر وهو حجر مستطيل عريض بقدر الكف ذو حد أو حجر محدد. المناسم: جمع منسم وهو طرف خف البعير. والعجي: عصيب في ايدين وفي الرجلين. وملثومها: خفها الذي يلثمه الحصى. والأمعر: الذي ذهب شعره.

[٧] نجلته: رمته بمناسمها. والخذف: الرمي بالحصى والنوى. والأعسر: الذي يرمي بيده اليسرى، ورميه لا يذهب مستقيمًا.

٣٠- كَـأَنَّ صَـلِيلَ المَـرْوِ حِـينَ تُطِيـرُهُ صَـــلِيل زيـــوفٍ يُنْتَقَـــدْنَ بعَبْقَـــرَا[١]

٣١- عليهـا فَتًـى لـم تَحمِـل الأرضُ مِثْلَـهُ أبـــرَّ بمِيثـــاقٍ وأَوفَـــى وأَصْـــبَرَا[٢]

ينفتح مشهد الناقة بصيغة: فدع ذا، وهي صيغة يُتوصَّل بها إلى صرف الكلام عن وجه إلى وجه آخر، ينتقل الكلام إذن إلى وجه جديد، وهو وجه يتعلق بمقاومة الهَمِّ، والخروج منه. لكن الناقة ليست، كما يطرح "كمال أبو ديب"، "رفيقة رحلة الأسى، رفيقة لحظة الإقرار بالتفتت، والاندثار والانقطاع. الناقة تجسيد لفاعلية الزمن التي تولد التغير وتؤدي إلى تمزيق المكان والعلاقات الإنسانية"[٣]. وإن كانت الناقة على المستوى السطحي تبدو وكأنها سبيل لتجاوز الهَمِّ والأسى، فإنها على المستوى العميق رفيقة الشاعر في مقاومة الهَمِّ، أو الأداة الفاعلة للذات حين تحاول أن تسترد الملك أو تستعيد الماضي. إن الناقة في التعبير الشعري لم تكن "مجرد كلمة، بقدر ما كان لها من علاقات حميمة تصلها بذات الشاعر، وقد كانت تلك الحميمية من الثراء بمكان بحيث أسبغت على الحيوان معاني متضاربة وغريبة، في الشكل والطباع، فهي تناقض نفسها في قوتها وتحمل عناء الطريق وثقلها وأساها دون خضوع أو انكسار حتى تبلغ غايتها في النهاية، وهي أقوى بنية وأشد رغبة في البقاء"[٤].

تتصل الناقة بذات الشاعر، فهي رفيقة التحدي والمقاومة والمسعى والهدف، هي رفيقة رحلة الحياة لاستعادة الماضي والمجد المؤثل واسترداد الملك. وإذا كانت الناقة كذلك، فإنها تتمتع بصفات القوة والاندفاع والصلابة، هي ناقة نشيطة تجسر على الهول والسير، ذمول سريعة، صابرة على الشدائد، تقتحم الصعاب، لا يمنعها قيظ الظهيرة:

---

[١] صليل المرو: صوت الحجارة. الزيوف: الدراهم الزائفة. وينتقدن: ينقرن بالإصبع لتعرف جودتها من صوتها. عبقر: مدينة باليمن وقرية تسكنها الجن.

[٢] الفتى: يريد نفسه. الميثاق: العهد يستوثق فيه بالوفاء. أبر: أكثر وفاء.

[٣] أبو ديب، كمال (١٩٨٦)، ص ٢٧٨.

[٤] ستيتكيفتش، ياروسلاف (١٩٩٥)، ص ١٨٦.

"إذا صَامَ النَّهارُ وَهَجَّرَا"، فتقطع الأودية السهلة والمرتفعات الوعرة. وتتواشج صفات الناقة في السير مع صفاتها البدنية والجسدية، لتعطي صورة الكمال في الخُلق (السلوك) والخلقة (البنيان الجسدي). ويسرد النص قوة بنيانها، وما تمتاز به هذه الناقة من سلامة الجسد وكماله، هي ناقة عريضة المنكبين، وصلبة أعصاب قوائمها ومتينة الجلد، ولفرط قوتها لا تؤثر فيها الحجارة والحصى، فهي تسحقها وتفتتها بمناسمها القوية الصلبة.

وتتحد عناصر الطبيعة مع قوة هذه الناقة، فالغيطان تكسى ملاءً منشرًا في وقت الظهيرة، حيث يشبه الملك الضليل ما يبدوا عليها من السراب وقت الظهيرة وتوهج الحر بالملاحف البيض المنشورة. إن صورة السراب تمنح مشهد الناقة في رائية الملك الضليل رمزيته ودلالته العميقة، حيث تقرب الوصل بين الواقع المرير والمؤلم الذي يحيا فيه الملك الضليل وبين الحلم الناعم الذي يجاهد بناقته من أجل تحقيقه والوصول إليه. ويتحول فعل رمي الحجارة وتبعثرها بأرجل هذه الناقة القوية إلى رمي رجل أعسر، أي يرمي هذه الحجارة بيده اليسرى فتذهب هذه الحجارة مبعثرة غير مستقيمة، ويغدو صوت هذا التطاير والتفتت والتبعثر كصوت الدراهم الزائفة التي تكون أشد صوتًا من غيرها الصحيحة لكثرة نحاسها.

ولم تكن الناقة قوية الخلقة فقط، وإنما أسبغ عليها الملك الضليل آفاقًا خيالية وأسطورية جسدها الدال "عبقر" الذي يشير إلى موضع بالبادية "تَزْعُمُ العَرَبُ أَنَّهُ فِي أَرْضِ الجِنِّ ... ثمَّ نَسَبُوا إِلَيْهِ كلَّ شيْءٍ تَعَجَّبُوا من حِذْقِه أَو جَوْدَةِ صَنْعَتِه وقُوَّتِه. وَقَالَ ابنُ الأَثِيرِ: عَبْقَرُ: قريَةٌ يَسكُنها الجِنُّ فِيمَا زَعَمُوا، فكُلَّما رَأَوْا شَيْئًا فائِقًا غَرِيبًا ممّا يَصْعُبُ عمَلُه ويَدِقُّ، أَو شَيْئًا عَظِيمًا فِي نفْسِه، نَسَبُوه إِليها"[1]. إن الناقة تمتلك قوة

[1] الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (١٩٧٣)، مادة عبقر، ص ٥١٤.

خارقة مكتملة الصنع والحذق، فهي تنتمي إلى عالم ليس من هذا العالم، عالم العبقرية، وعالم المثل العليا، وعالم الكمال.

ومثلما تنتمي الناقة إلى عالم مغاير مختلف عن هذا العالم، فإنها تحمل على ظهرها الملك الضليل الذي ينتمي أيضًا إلى عالم آخر، إنه متفرد كناقته، فهو الرجل المثال أو البطل النبيل الذي يرعى المواثيق ويحفظ العهود. وينغلق مشهد الناقة بهذا المعني، وكأنه يعلن عن عالم البطولة الفريدة التي تسعى إلى استعادة الماضي أو استرداد الملك المفقود.

(٦)

تدفع الناقة الملك الضليل إلى عالم البطولة الفردية لتحقيق محاولة استرداد الملك أو استعادة الماضي. ويظهر في هذا العالم الفخر بالأنا وعالمها وسعيها نحو تحقيق ما تصبو إليه. لكن يظل هذا العالم البطولي مرهونًا ومتصلًا في آن برؤية مركزية يفصح عنها النص بجلاء تام، وشفافية مطلقة، هذه الرؤية تتعلق بمحاولة استعادة الملك، يقول امرؤ القيس[١]:

٣٢- هُـوَ المُنْـزِلُ الأُلَّافِ مـن جَـوِّ نَـاعِطٍ بَنِـي أَسَـدٍ حَزْنًـا مـن الأرضِ أَوْعَـرَا[٢]

٣٣- وَلَوْ شاءَ كانَ الغزْوُ من أرضِ حِمْيَرٍ ولكنَّـه عَمْـدًا إلـى الـرُّوم أَنْفَـرَا[٣]

٣٤- بَكَـى صَـاحِبي لَمَّـا رَأَى الـدَّرْبَ دُونُـه وأَيْقَـنَ أَنَّـا لاحِقَـانِ بقَيْصَـرَا[٤]

٣٥- فَقُلْـتُ لَـهُ لا تَبْـكِ عَيْنُـكَ إنَّمَـا نُحـاوِلُ مُلْكًـا أوْ نَمُـوتَ فَنُعْـذَرَا[١]

---

[١] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٥-٦٧.

[٢] الألاف: القصاد الذين يؤمونه لإلفهم الإحسان به. ناعط: جبل باليمن برأسه حصن قديم. جو: أرض باليمامة. الحزن الأرض الصعبة المسالك. أوعر، من الوعورة: وهي الشدة والصعوبة.

[٣] العمد: القصد. أنفر: أغزى.

[٤] صاحبه هذا هو عمرو بن قميئة. الدرب: المدخل إلى أرض الروم.

٣٦- وإنِّـــي زَعِـــيمٌ إن رَجَعْـــتُ مُمَلَّكـــاً بِسَـــيرٍ تَـــرَى منـــه الفُرانِـــقَ أَزْوَرَا[٢]

٣٧- عَلَـــى لَاحِـــبٍ لا يُهْتَـــدَى بِمَنـــارِهِ إذا ســـافَه العَـــوْدُ النَّبَـــاطِيُّ جَرْجَـــرَا[٣]

٣٨- عَلَـى كـلِّ مَقْصُـوصِ الـذُّنَابَى مُعَـاوِدٍ بَرِيـدَ السُّـرَى باللَّيـل مـن خَيْـلِ بَربَـرَا[٤]

٣٩- أقَـبَّ كسِـرْحانِ الغَضَـى مُتَمَطِّـرٍ تَـرَى المَـاءَ مـن أَعْطَافِـهِ قـد تَحَـدَّرَا[٥]

٤٠- إذا زُعْتَـــهُ مـــن جَانِبَيْـــهِ كِلَيْهِمَـــا مَشَـــى الهَيْـــدَبَى فـــي دَفَّـــه ثـــمَّ فَرْفَـــرَا[٦]

٤١- إذا قُلْـــتُ رَوِّحْنَـــا أَرَنَّ فُرَانِـــقٌ علـــى جَلْعَـــدٍ واهِـــي الأَباجِـــل أَبْتَـــرَا[٧]

ومثلما كان الملك الضليل في نهاية مشهد الناقة الفتى الذي لم تحمل الأرض مثله، وكان صابرًا ووفيًا بعهده وميثاقه الذي قطعه على نفسه، فإنه في مشهد البطولة الفردية يصبح مقصد القصاد الذين يؤمونه لإلفهم إحسانه ومُنْزِلهم من أرض ناعط (حصن على رأس جبل باليمن أو حي من همدان من اليمن). لكنه وإن كان يفخر بما حوله من قصاد وأُلَّاف فإنه يحمل تهديدًا ووعيدًا لبني أسد (بَنِي أَسَدٍ حَزْنًا من الأرضِ

---

[١] أي نحن نطلب الملك، فإن بلغنا أربنا منه وإلا ألححنا في الطلب حتى نموت دونه، وفي هذا أشرف العذر لنا.

[٢] زعيم: كفيل. إن رجعت مملكا: إن عاد لي ملكي. الفرانق: الذي يدل صاحب البريد على الطريق، وربما سمي دليل الجيش فرانقا. أزور: مائل العنق.

[٣] اللاحب: الطريق الواضح. لا يهتدي بمناره: ليس له منار يهتدي به. والمنار: العلامة توضع على الطريق لإرشاد المسافرين. سافه: شمه. العود النباطي: الجمل المسن الضخم. جرجرا: رغا وضج.

[٤] مقصوص الذنابى: محذوف الذيل، وقد كانت العادة عندهم أن تحذف أذناب خيل البريد ليكون ذلك علامة لها. معاود: معتاد السير. بريد السرى: رسول الليل، والسرى لا يكون إلا ليلا. وبربر: قبيلة كانت معروفة بالقيام على خيل البريد.

[٥] أقب: ضامر نحيل. السرحان: الذئب. والغضى: شجر تأوي إليه الوحوش. وذئاب الغضى أخبث الذئاب. متمطر: سابق. أعطافه: نواحيه. ويريد بالماء العرق.

[٦] زعته: جذبته بلجامه. الهيدبى: ضرب من المشي السريع. دفه: جنبه. فرفر: أنغص رأسه.

[٧] روحنا: سرعنا وارحنا من عناء السفر. أرن فرانق: صاح أسد. الجلعد: القوي الغليظ. واهي: لين العروق والمفاصل. الأباجل: عروق في الرجل. وابترا: المقطوع الذنب.

أوْعَرَا)، أي بما يفسر الشارح القديم: "عليكم يا بني أسد بالنزول بما غلظ من الأرض وخشن، والتحصن بالجبال"[1]؛ لأنه سيأتيكم بما لا قبل لكم به. إن الملك الضليل يمسك بزمام الأمور؛ يمكنه أن يكون الغزو من أرض حمير أي من الجنوب، ويمكنه أيضًا أن يكون الغزو من أرض الروم، أي من الشمال، إنه يستطيع أن يحقق الغزو من أي مكان وفي أي وقت، لكنه اختار أن يكون الغزو من أرض الروم متعمدًا، إنه يأتي بالغريب والأجنبي إمعانًا في الذِّلَّة والمهانة.

أشرت سلفًا بأن الملك الضليل ربما فكر بالاستعانة بقيصر الروم في حربه مع بني أسد ليحقق حلمه ويستعيد ماضيه ويسترد ملك آبائه. وتتجلى هذه الفكرة في وصفه لصاحبه بالبكاء حنينًا إلى بلاده في الدرب الذي يفصل بلاد العرب عن العجم، وصاحبه هذا هو عمرو بن قميئة اليشكري الشاعر[2]. ومن الجدير بالانتباه أن دال البكاء أثير عند امرئ القيس، فمن قبل وقف وبكى، فالوقوف والبكاء دعوة للانتباه ومحاولة من قبل امرئ القيس لتأمل الحياة، فالبكاء ينبئنا بأنه يشعر بمسؤلية كبرى نحو نفسه لذا توقف عن حياة اللهو والترف، مجاهدًا في ايقاظ المجتمع ودفعه نحو المشاركة في المسؤولية أو الطامة الكبرى التي يعانيها، وعلى صعيد آخر، يشكل البكاء وسيلة قوية ومهمة لفهم الأزمة التي كان يعانيها هذا الملك الضليل. لكن فعل البكاء في الرائية منسوب إلى صاحبه، وكأن امرأ القيس أقلع عن البكاء، أقلع عن التأمل، أقلع عن الفهم، تجاوز عن الأزمة، هو مندفع إلى محاولة الملك وتحقيقه، ولهذا يأتي البيت الخامس والثلاثين معلنًا عن الفعل والمحاولة وليس البكاء، ويشكل فيما أتصور الرؤية المركزية في الرائية:

فَقُلْــتُ لَــهُ لا تَبْــكِ عَيْنُــكَ إنَّمَــا نُحــاوِلُ مُلْكًــا أوْ نَمُــوتَ فَنُعْــذَرَا

[1] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٥.

[2] راجع: الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى (١٩٦٣)، الجزء الأول، ص ٦٧.

عند هذه النقطة يتنامى الفعل إلى ذروته، فإما أن يكون الملك وإما أن يكون الموت، فإن كان الملك فهو المجد المؤثل وعودة الماضي المجيد، وإن كان الموت فيكون العذر بأنه لم يقصر في طلبه. ينفلت النص ناحية الملك: "وإنِّي زَعِيمٌ إن رَجَعْتُ مُمَلَّكًا"، ويتجلى الفرس، ذلك البطل النبيل الذي ملأته الثقة والعزة بالنفس أو هو "رفيق فعل البطولة، فعل الصراع والانتصار وتأكيد الحياة"[1]، بسرعته وقوته: "بسَيرٍ تَرَى منه الفُرانِقَ أَزْوَرَا". إن عالم الفرس أشبه ما يكون بعالم الناقة ليس بينهما فرق كبير، "فالصورة القريبة للناقة أو الفرس هي صورة الفرد الذي يريد أن يواجه سائر الأشياء... هما معًا شغل الشاعر العربي في العصر الجاهلى خاصة. وكلاهما في الحقيقة رمز معقد متعدد الجوانب، وقد يتداخل معنياهما أحيانًا"[2].

ومثلما امتلكت الناقة صفات القوة والمتانة واقتحام الصعاب، فإن الفرس يمتلك صفات السرعة والقوة والسبق، يسير مسرعًا على الطريق اللاحب (البين والخفي أي المعبد وغير المعبد) الذي لا يكون فيه علم ولا منارة فيهتدى بها، وإذا شمه المسن من الإبل ضج ورغا لبعده وما يلقاه فيه من الصعاب والمشقة، ووصف هذا المسن من الإبل بالنباطي لأنه أشد الإبل وأصبرها وأضخمها (إذا سافَه العَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا). وهو فرس فائق السرعة لا يفوق الإبل النباطي فقط، ولكن يقطع الطريق، أيضًا، على كل فرس مقصوص الذنب، وكذلك خيل البريد التي استعملت في سير البريد ليلًا ونهارًا، والتي تنتمي إلى خيل بربر أى أصلب الخيل وأجودها. ويتمتع الفرس بصفات جسدية، فهو خميص البطن مثل ذئب الغضى، وذئب الغضي أخبث الذئاب وأمكرها، وهو لين العروق والمفاصل فيتسع لذلك في العدو؛ ويتصبب عرقًا من سرعته ومشقته في السير، وإذا عطفته وأملته بالركض وبالزجر من جانبيه كليهما تبختر في مشيه

[1] أبو ديب، كمال (١٩٨٦)، ص ٢٧٨.

[2] ناصف، مصطفى (١٩٨١-١)، ص ٢٤٦.

ومال في أحد جانبيه، أي كأنه يحرك رأسه من ذا الجانب مرة، ومن ذا الجانب مرة أخرى.

لقد اكتمل فعل البطولة الفردي بالفرس، مثلما تم تأسيسه بالناقة، لكن هل تحقق الملك والمجد المؤثل، وعاد امرؤ القيس ملكًا محافظًا على ملك أبيه مستعيدًا ماضيه المجيد؟ لم يكن ذلك، ويشهد نص الرائية في نهايته المحاولات المتكررة لاستعادة الماضي والملك المفقود، لكنها تدور في فلك الغربة وضلاله بين القبائل.

(٧)

لا يمكن أن نفصل بين ضلال امرئ القيس بين القبائل وبين سعيه لاستعادة الماضي أو محاولة استرداد الملك، حيث انتهي هذا الضلال بضياع ملك كندة أو أن ملك كندة ضَلَّ على يده. وربما لا يمكن أيضًا أن نفصل بين هذا وما تولد عنه وبين غربته العميقة المزدوجة التي بدأت في فترة مبكرة من حياته، "فلقد تغرب أولًا عندما تصدعت علاقته بأبيه، وخرج عن حياته الأسرية؛ ثم ازدادت غربته عمقًا عندما لحق به الماضي في حياته الجديدة وأفسد عليه متعه، وزعزع استقراره في عالم اللهو، وأرسله يضرب في الآفاق لتحقيق مهمة عسيرة لم يكن مؤهلًا لها. ولقد عبرت تلك القولة الشهيرة: ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا، أوجز تعبير عن غربة الشاعر ببعديها"[١]. يقول امرؤ القيس[٢]:

٤٢- لَقَـــدْ أَنْكَرَتْنِـــي بَعْلَبَـــكُّ وأَهْلُهـــا وَلابـــنُ جُـــرَيْجٍ فـــي قُـــرَى حِمْـــصَ أَنْكَـــرَا[٣]

٤٣- نَشِـــيمُ بُـــرُوقَ المُـــزْنِ أيـــنَ مَصَـــابُهُ ولا شَـــيءَ يَشْـــفِي مِنْـــكَ يـــا ابنَـــةَ عَفْـــزَرَا[١]

[١] محمودي، عبد الرشيد الصادق (١٩٨٤)، ص ١٣٢.

[٢] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٨-٧١.

[٣] بعلبك: مدينة بالشام بين دمشق وحمص. أنكرتني: لم يعرف فيها قدري كم لم يعرف قدري ابن جريح في قرى حمص.

٤٤- من القاصِرَاتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِنَ الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ منها لَأَثَّرَا[٢]

٤٥- لَه الوَيْلُ إن أَمْسى ولا أُمُّ هاشِمٍ ... قريبٌ ولا البَسْباسَةُ ابنةُ يَشْكُرَا[٣]

٤٦- أَرَى أُمَّ عَمْرٍو دَمْعُها قد تَحدَّرَا ... بُكَاءً على عَمْرٍو وَمَا كان أَصْبَرَا[٤]

٤٧- إذا نحن سِرنا خَمسَ عَشْرةَ لَيْلَةً ... وَراءَ الحِساءِ من مَدَافِع قَيْصَرَا[٥]

٤٨- إذا قُلتُ هَذا صاحِبٌ قَد رَضيتُهُ ... وَقَرَّتْ بِهِ العَينَانِ بُدِّلْتُ آخَرَا[٦]

٤٩- كَذَلِكَ جَدِّي ما أُصاحِبُ صاحِبًا ... مِنَ النَاسِ إلّا خانَنِي وَتَغَيَّرَا[٧]

٥٠- وَكُنَّا أُناسًا قَبلَ غَزْوَةِ قُرْمُلٍ ... وَرِثْنَا الغِنَى وَالمَجدَ أَكْبَرَ أَكْبَرا[٨]

٥١- وما جَبُنَتْ خَيْلي ولكنْ تذكَّرَتْ ... مَرَابِطَهَا في بَرْبَعِيصَ ومَيسَرَا[١]

---

[١] نشيم: ننظر. بروق المزن: لمعان البرق في السحاب، لأنه يعقبه مطر. أين مصابه: أين يقع مطره، فلعله يقع في ديار الأحباب فتستريح النفس وتشفى من الوجد. ابنة عفزر: هي امرأة كان يهوها فيمن هوى من النساء.

[٢] القاصرات الطرف: أي أنها ممن قصرت أعينهن عن النظر إلى من ليس لهن من الرجال، ويظهر أنها كانت زوجة أو هو جعلها قد اختصته بنفسها دون سواه. لودب محول من الذر: لو مشى الذر الصغير جدًا على الإتب أي القميص غير المخيط الجانبين التي كانت تلبسه لأثر في جسمها.

[٣] له الويل: له الشقاء والحزن الطويل، يعني نفسه. وأم هاشم: كنية ابنة عفزر. البسباسة ابنة يشكر: امرأة من صواحباته.

[٤] أم عمرو: هي أم عمرو بن قميئة أو ابنته. تحدر: انصب وسال.

[٥] الحساء: جمع حسي: الأماكن السهلة المنخفضة التي يستنقع فيها الماء. مدافع قيصر: مسالحه التي على حدود بلاده المعدة لحمايتها والدفاع عنها.

[٦] يقال قرت عينه من القر، أي بردت، وهو خلاف سخنت عينه، وقرت: هدأت، من قررت بالمكان.

[٧] كذلك جدي: هكذا حظي، والجد: البخت والحظ. فلا أختار صاحبا وأجعله موضع ثقتي وراحة نفسي إلا خانني وتغير علي.

[٨] قرمل: أحد أقيال حمير باليمن، وهو قرمد بن الحميم ملك بعد مرثد الخير بن ذي جدن، وكان امرؤ القيس قصده لينصره على بني أسد الذين قتلوا أباه، فأمده بأخلاط من عرب اليمن وشذاذ القبائل والمستأجرة، فكن منهم في عناء.

٥٢- أَلَا رُبَّ يَـوْمٍ صَـالِحٍ قَـد شَـهِدْتُهُ بِتَـأْذِفَ ذاتِ التَّـلِّ مِـن فَـوْقِ طَرْطَـرَا[٢]

٥٣- ولا مِثْـلَ يَـوْمٍ فِـي قُـذارَانَ ظِلْتُـهُ كَـأَنِّي وأصـحابي علـى قَـرْنِ أَعْفَـرَا[٣]

٥٤- ونَشْـرَبُ حتـى نَحسِـبَ الخيـلَ حَوْلَنَـا نِقَـادًا وَحتـى نحسِـبَ الجَـوْنَ أَشْـقَرَا[٤]

في رحلة الملك الضليل لاستعادة الماضي أو الملك المفقود، يشهد القسم الأخير عمليات متنوعة من الغربة والضلال، تبدأ بإنكار أهل بعلبك وابن جريح في قرى حمص، والإنكار يشير إلى دلالتين متواشجتين، أولهما تتعلق بمعرفة قَدْرِه وقيمته بوصفه ملكًا مغدورًا به، والثانية وهي نتيجة تكاد تكون حتمية للدلالة الأولى هي عدم موافقته والابتعاد عما يرغب في معاونته على استرداد الملك، فكأنه لا يرى شيئًا يسر به. يتغرب الملك الضليل ويضل أكثر عندما تتنازعه سهام الوحدة، فيتخيل مصاب المطر أين يكون وقعه، متمنيًا أن يصيب أرض ابنة عفزر، فربما يكون ذلك دافعًا على الشفاء من هذه الوحدة والغربة والضلال، لكن على الرغم من ذلك فليس هناك ما يشفيه من شوقه ومحبته لابنة عفزر: "ولا شَيءَ يَشْفِي مِنْك يا ابنَةَ عَفْزَرَا". لقد ولدت الغربة الويل في ليل الوحشة والاشتياق إلى ابنة عفزر (أم هاشم) والبسباسة ابنة يشكر.

يعود دال البكاء من جديد، لكنه هذه المرة ليس منسوبًا إلى صاحبه عمرو بن قميئة، ولكنه ينسب إلى أم عمرو، ولا يفصح النص إن كانت أم عمرو أو ابنته،

---

[١] بربعيص وميسر: موضعان. يعتذر عن انصراف قومه عن لقاء قرمل عدوهم.

[٢] تاذف: قرية من قرى حلب. وطرطر: قرية بوادي بطنان وهو وادي بزاعة، قرب حلب يسمونها طلطل.

[٣] قذاران: اسم رومي لقرية في نواحي حلب. وبحلب قرية يقال لها أقذار ملك لبني أبي جرادة. على قرن أعفر: قرن ظبي. يريد أنهم كانوا على غير استقرار ولا طمأنينة.

[٤] نشرب: نسكر. النقاد: صغار الغنم. الجون: الأبيض خالطه سواد، أو الأسود مازجه بياض، يعني أنهم كانو يشربون حتى يذهب تمييزهم بين الأشياء المتباينة.

والأمر في هذه المسألة سيان. إن ما يلفت الانتباه في عودة دال البكاء من جديد هو أن الملك الضليل لا ينفي فعل البكاء مثلما فعل في مشهد البطولة الفردية، وكأن امرأ القيس يعود مرة أخرى إلى البكاء والمراجعة والتأمل. إن البكاء هنا صرخة وصيحة جديدة مدوية من الملك الضليل تعلن عن الضلال، وتدخل في متاهات الحيرة، وتعلن عن الوحدة والغربة، وتبدأ من جديد في عمليات المراجعة والتقييم.

لقد أدرك الملك الضليل من قبل إنكار بعلبك وحمص، والآن يدرك ما يحدث له من عمليات الإنكار والخيانة مما يزيد من غربته وضلاله وحيرته، وربما كان الشارح القديم محقًا عندما فسر البيت الثامن والأربعين والتاسع والأربعين من الرائية بقوله: "يصف أن الدهر قد تغير له، وأنه لا يلقى ما يسره ويقر عينه به، وكلما لقى إنسانًا ورجا منه حسن الصحبة، بدا منه عند الاختبار ما لا يرضاه ولا يقر عينه، فانتقل إلى آخر واستبدل به، وإنما يصف بهذا كله شدة ما يلقاه في سفره، وقلة ما بقى بذمته لإنكار الناس له إذ حل في غير أهله ودياره"[1]. لقد ظل امرؤ القيس غريبًا في رحلته لاستعادة الماضي ومحاولة ملكه المفقود، ولذلك يعود مرة أخري إلى الماضي في استمراره ليعينه من جديد. لقد ورث المجد والغني في المال والسمعة عن أجداده، وقد كانوا قبل غزوة قَرْمَل (قَرْمَل ملك من ملوك اليمن) أناسًا صالحين مشهودًا لهم بالعز والقوة. ويذكر "التبريزي" أن "أصحاب امرئ القيس اختلفوا عليه ... فخرج إلى اليمن، إلى بعض مَقاول حمير واسمه قَرْمَل، فاستجاشه، فثبطه قَرْمَل"[2]؛ وامرؤ القيس يعتذر عن أصحابه بأن جعلهم غير منهزمين لجبن أدركهم أو لضعف استولى عليهم،

[1] الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٦٩.

[2] التبريزي، على بن الخطيب (١٩٩٤)، ص ٢١.

وراجع أيضًا: الحسيني، العباس بن على بن نور الدين (١٩٦٧)، الجزء الثاني، ص ١٤٩.

ولكنهم ذكروا الموطن والأهل، فرجعوا عن العدو حرصًا على اللحاق بالأهل، ولتشفى نفوسهم بلقائهم[1].

يتجلى الماضي في استمراره بوضوح بالغ، حيث يستعيد الملك الضليل أيامه الصالحة، التي حقق فيها النصر والغلبة، وكأنه يعتذر وينفي أيضًا ما وقع في غزوة قَرْمَل، وفي غيرها التي ضيعت الملك والمجد. يستعيد يوم تَأْذِف وما حققه من الظفر والخير، ويوم قُذَران الذي كان أشد ظفرًا وأعظم غلبة من غيره، لأنه لم يكن هو وأصحابه بمأمن وطمأنينة كبيرة، فكأنهم كانوا على قرن ظبي أعفر (الأعفر من الظباء: الأبيض يخالط بياضه حمرة) لا يستقر ولا يهدأ، والخليط هنا (البياض والحمرة) يشير إلى أن الواقعة لم تكن بالشيء اليسير والهين، ومع ذلك تحقق النصر والغلبة والظفر.

تنغلق الرائية بمشهد الحلم والاحتفال بالنصر، وربما يتساءل القارئ لما الاحتفال هنا؟ ويستعيد القارئ البيت السادس والثلاثين من الرائية: "وإنِّي زَعِيمٌ إن رَجَعْتُ مُمَلَّكًا"، وكأنه يشكل المسكوت عنه في البيت الأخير، إنه الحلم الذي يسعى إليه الملك الضليل، وهو رجوعه ملكًا مستعيدًا ماضيه ومجده القديم، عند هذه النقطة يمكن للقارئ أن يفسر مشهد الاحتفال في نهاية الرائية: إني إن رجعت مملكًا، فسنقيم الأفراح ونشرب حتى يذهب السكر عقولنا ويحير أبصارنا، فلا يمكن التمييز بين المتضادين، الخيل وصغار الغنم، والفرس الأسود والفرس الأشقر.

لقد ظل الملك الضليل ساعيًا إلى استعادة الماضي واسترداد الملك طيلة حياته، لكن شيئًا من ذلك لم يكن، لقد كان الضلال والغربة والحيرة، وكان الموت في النهاية.

ببليوجرافيا

[1] راجع: الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)، ص ٧٠.

- **الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (١٩٩٢)**.الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، الجزء الأول، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار المعارف).
- **الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (١٩٩١)**.المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وبعض شعرهم، صححه وعلق عليه: ف. كرنكو، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار الجيل).
- **إبراهيم، السيد (٢٠٠٥)**.المتخيل الثقافي ونظرية التحليل النفسي، الطبعة الأولى (القاهرة: مركز الحضارة العربية).
- **الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)**.كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، المجلد التاسع، الطبعة الثالثة (لبنان، بيروت: دار صادر).
- **الأصمعي، عبد الملك بن قُرَيْب (١٩٨٠)**.كتاب فحولة الشعراء، تحقيق المستشرق: ش. توري، تقديم: صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: دار الكتاب الجديد).
- **الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى (١٩٦٣)**.أشعار الشعراء الستة الجاهليين: اختيارات من الشعر الجاهلي، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، الجزء الأول، الطبعة الثالثة (القاهرة: ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي).
- **الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (١٩٩٣)**.شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة (القاهرة: دار المعارف).
- **بركلمان، كارل (١٩٨٣)**.تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، الجزء الأول، الطبعة الخامسة (القاهرة: دار المعارف).

- **البغدادي، عبد القادر بن عمر(١٩٩٧)**.خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء الأول، الطبعة الرابعة (القاهرة: مكتبة الخانجي).
- **التبريزي، على بن الخطيب (١٩٩٤)**.شرح مقصورة ابن دريد، تحقيق: فخر الدين قباوة (لبنان، بيروت: مكتبة المعارف).
- **الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)**.طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، السفر الأول (جدة: دار المدني).
- **ابن حبيب، أبو جعفر محمد (١٩٩١)**.كنى الشعراء ومن غلبت كنيته علي اسمه، ضمن كتاب: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثاني، الطبعة الأولي (بيروت: دار الجيل).
- **حسين، طه (١٩٣٣)**.في الأدب الجاهلي، الطبعة الثالثة (القاهرة: لجنة التأليف والترجة والنشر).
- **الحسيني، العباس بن على بن نور الدين (١٩٦٧)**.نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، الجزء الثاني (النجف الأشرف: منشورات المطبعة الحيدرية).
- **خليف، يوسف (١٩٩٧)**.أوراق في الشعر ونقده (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع).
- **ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (١٩٨٧)**.كتاب جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الجزء الأول، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار العلم للملايين).
- **أبو ديب، كمال (١٩٨٦)**.الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلى، ١- البنية والرؤيا (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- **الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (١٩٧٣)**.تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، راجعه: عبد الستار أحمد فراج، الجزء الثاني

عشر (الكويت: التراث العربي، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).

- **الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (١٩٩٧)**.تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، راجعه: أحمد مختار عمر وخالد عبد الكريم جمعة، الجزء التاسع والعشرون (الكويت: التراث العربي، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب).

- **ستيتكيفتش، ياروسلاف (١٩٩٥)**.الاسم والنعت: لغة الاصطلاح في تسميات الحيوان ورموزه في الشعر العربي القديم، ترجمة حسنة عبد السميع، وتمت مراجعة الترجمة من قبل صاحبه، مجلة فصول في النقد الأدبي، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

- **ابن سعيد، علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي (١٩٨٢)**. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، الجزء الأول (الأردن، عمان: الجامعة الأردنية ومكتبة الأقصى).

- **السندوبي، حسن (١٩٩٠)**.شرح ديوان امرئ القيس ويليه أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، جمعها وقدم لها وحققها: حسن السندوبي، راجعها وشرحها: أسامة صلاح الدين منيمنة، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار إحياء العلوم).

- **السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (١٩٦٦)**.شرح شواهد المغني، ذيل بتصحيحات وتعليقات محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي (دمشق: لجنة التراث العربي).

- **السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين (بدون تاريخ)**.المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته: محمد أحمد جاد المولي، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة (القاهرة: مكتبة دار التراث).

- **الشيخ، حسين (١٩٩٣)**.العرب قبل الإسلام (مصر، الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية).
- **شيخو، الأب لويس (١٩٩١)**.شعراء النصرانية قبل الإسلام، الطبعة الرابعة (لبنان، بيروت: دار المشرق).
- **ضيف، شوقي (٢٠٠٠)**.العصر الجاهلي، الطبعة الثانية والعشرون (القاهرة: دار المعارف).
- **الطُّوفي، نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم بن سعيد(١٩٩٤)**.موائد الحيس في فوائد امرئ القيس، دراسة وتحقيق: مصطفى عليان، الطبعة الأولى (الأردن، عمان: دار البشير).
- **الطيب، عبد الله (١٩٧٠)**.المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها في الرموز والكتابات والصور، الجزء الثالث، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار الفكر).
- **العباسي، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد (١٩٤٧)**.معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه: محمد محي الدين عبد الحميد (لبنان، بيروت: عالم الكتب).
- **ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (١٩٨٨)**.بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له: سهيل ذكار، الجزء الرابع (لبنان، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر)
- **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (١٩٩٥)**. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، الجزء التاسع (لبنان بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر).
- **على، جواد (١٩٩٣)**.المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء التاسع، الطبعة الثانية (العراق، بغداد: ساعدت جامعة بغداد على نشره).

- **أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (١٩٠٧)**. المختصر في تاريخ البشر، الجزء الأول، الطبعة الأولى (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية).
- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)**.الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الجزء الأول (القاهرة: دار المعارف).
- **القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (١٩٨١)**.جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والإسلام، حققه وضبطه وزاد في شرحه: محمد على البجاوي (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر).
- **الكندي، امرؤ القيس بن حُجر (١٩٩٠)**.ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة (القاهرة: دار المعارف).
- **كولر، جوناثان (٢٠١٦)**.النظرية الأدبية: مدخل قصير جدًا، ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، الطبعة الأولى (الجزائر: دار ميم للنشر).
- **محمودي، عبد الرشيد الصادق (١٩٨٤)**.غربة الملك الضليل، مجلة فصول في النقد الأدبي، المجلد الرابع، العدد الثاني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- **مكي، الطاهر أحمد (١٩٩٣)**.امرؤ القيس حياته وشعره، الطبعة السادسة (القاهرة: دار المعارف).
- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥)**.لسان العرب، المجلد الحادي عشر (لبنان، بيروت: دار صادر).
- **ناصف، مصطفى (١٩٨١-١)**دراسة الأدب العربي، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر).
- **ناصف، مصطفى (١٩٨١-٢)**.قراءة ثانية لشعرنا القديم، الطبعة الثانية (لبنان، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع).
- **ناصف، مصطفى (١٩٩٢)**.صوت الشاعر القديم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).

- **النفاخ، أحمد راتب (١٩٨٠)**.مختارات من الشعر الجاهلى، اختارها وعلق عليها: أحمد راتب النفاخ (دمشق: مكتبة دار الفتح).